الكنيسة القبطية

والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى

مقدمة :

لو دققنا النظر فى ثنايا القرون المتلاحقة والعصور المتوالية من التاريخ المصرى ، لوجدنا أن روح القومية لم تندرس معالمه نهائياً بين المصريين ، بل إنهم احتفظوا بذلك الروح حتى أخذ يصبو ويزهو أحياناً كما يتضح ذلك فى عصرين معيّنين وفى مشروعين قُصِدَ بهما تحقيق استقلال مصر والمصريين من النير الأجنبى : أحدهما حديث ، والآخر تقادم العهد عليه حتى كاد أن يصبح نسياً منسياً . أما الحديثِ فهو مشروع الجنرال يعقوب سنة ١٧٩٨ — ١٧٩٩ الذى يقترن بعصر الحملة الفرنسية على مصر ، وهو المشروع الذى كشف عنه ونشره الأستاذ الكبير شفيق غربال بك ؛ وأما القديم فيرجع تاريخه إلى القرنين السابقين للفتح العربى لمصر مباشرة ، وهو ما نسميه بالعصر البيزنطى القبطى .

وبقدر ما وَضُح لنا الآن مشروع الجنرال يعقوب حتى أصبح فصلا لازماً من فصول تاريخ مصر الحديث ، بقدر ما أسدل ستار النسيان على المشروع القديم .

أسباب إهمال هذه الدراسة :

وأسباب ما أحاط بهذه الدراسة من إهمال يمكن تلخيصها فى شعبتين : الأولى عامة تشمل دراسة التاريخ الوسيط فى جملته ، إذ أصابه غبن كبير من المؤرخين القدامى الذين اعتبروه عصر الظلام ، واعتبروه قنطرة توصل بين حضارة الرومان الزاهرة والمدنية الحديثة الباهرة يفصل بينهما وادى الظلمات وعالم الجهل والبربرية . والواقع أن نهضة الدراسات الوسيطة هى نهضة حديثة العهد ، وفضل العصور الوسطى والمدنية الروحية الوسيطة على تقدم الحضارة

الإنسانية إنما أصبح أمراً معترفاً به فى أخريات السنين ، والذى يهمنا معرفته هو أن الإهمال الذى حاق بدراسة التاريخ الوسيط شمل هذا العصر البيزنطى القبطى الذى نحن بصدده . وهنالك الشعبة الأخرى فى أسباب ذلك الإهمال ، ألا وهى اعتبار دراسة تاريخ هذا العصر مسألة دينية أو طائفية ، فانحصر نشاط الباحثين فيها فى دائرة ضيقة محدودة . والواقع أن تاريخ هذا العصر القبطى وتاريخ الكنيسة المصرية أصبح يعتبر — بفضل اجتهاد المجتهدين فى إخراجه — من أروع الفصول فى تاريخنا القومى العام ، بدليل الآثار الهائلة التى خلَّفها على مجريات تاريخنا المصرى الخاص من ناحية وتاريخ الحضارة العام من ناحية أخرى . فإحياء القومية المصرية فى العصر البيزنطى القبطى يرجع الفضل فيه إلى نشاط الكنيسة المصرية ، وناهيك — من ناحية أخرى — عن فضل التعاليم الرهبانية والديرية على توجيه الحضارة العامة ؛ وهذه التعاليم من أصل مصرى بحت بلغت أوجها فى قوانين باخوميوس ومقار وشنوده فى القرنين الرابع والخامس .

حدود الموضوع :

أما الحدود الزمنية لمصر البيزنطية القبطية ، كما نراها ، فهى **٣٢٣** — ٦٤٠ م . ففى **٣٢٣** اعتلى قسطنطين الكبير عرش الإمبراطورية الرومانية ، وكان لذلك ، أثران على أعظم جانب من الخطورة فى التاريخ العام والتاريخ المصرى الخاص إذ فى تلك السنة يؤسس مدينة القسطنطينية فتنشأ الإمبراطورية الشرقية أو البيزنطية ، وتنتقل إليها ملكية مصر ، أما فيما يتعلق بالنهاية فإن سنة ٦٤٠ أشهر من أن نعرّف بها ، فالفتح العربى لمصر لا يحتاج إلى تعريف .

تطور التاريخ المسيحى فى القرون الأولى الميلادية :

بعد رسم الحدود التى يدور ضمن نطاقها بحثنا ، نرى لزاماً علينا إجمال الخطوط الرئيسية والخطوات الكبرى فى تطور تاريخ المسيحية بهذه الديار ، حتى نصل عن هذا الطريق الطبيعى إلى فهم الظروف التى نشأت بها القومية المصرية فى طيات الكنيسة القبطية :

أولا : المرحلة الأولى هى مرحلة الاضطهادات الوثنية للمسيحيين وكانت تدور

أساسياً حول عبادة الأباطرة ، وأهم هذه الاضطهادات تقترن باسم نيرون سنة ٦٤ م وتراچان سنة ١٠٦ م وديسيوس سنة ٢٥٠ م ودقلديانوس سنة ٣٠٣ م وفى عهده يبدأ تاريخ الشهداء فى التقويم القبطى سنة ٢٨٤ م وهى سنة اعتلائه عرش الإمبراطورية .

ثانيا : المرحلة الثانية هى مرحلة انتشار المسيحية فى مصر بالرغم من هذه الاضطهادات حتى إن فلاسفة الإسكندرية وعلى رأسهم Pontinus ثم اكليمنضس ثم أوريجانوس يعتنقون الديانة الجديدة فى القرن الثانى ويصبغون تعاليمها بالصبغة الفلسفية ، وتصبح المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية عندما يصدر قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٢ م .

ثالثاً — يتلو ذلك عصر الردة الوثنية فى عهد يوليان الزنديق سنة ٣٦١ فيكون من آثاره بين المصريين تلك الثورة السكندرية التى انتهت بإحراق السرابيون سنة ٤١٢ ورجم هيبا شيا سنة ٤١٥ ، ولهذين الحادثين مغزاهما البالغ فى مجرى إيقاظ الشعور القومى ، إذ أن الخلاص من السرابيون إلى جانب أنه كان مسألة دينية فهو أيضاً مسألة القضاء على رمز العبادات البطلمية وعلى أكبر معقل من معاقل الفكر الهللينى الدخيل ، وما يقال عن السرابيون يقال عن هيباشيا أخرى فلاسفة المدرسة اليونانية القديمة . وفشل الردة اليوليانية يدل من ناحية أخرى فى التاريخ العام على أن المسيحية قد استقر أمرها نهائياً وأن يوم الوثنية قد أدبر وولّى .

رابعاً — يوازى هذه الحركة ويتبعها حركة أخرى من أهم الحركات ليس فقط فى تاريخ مصر القومى وإنما فى تاريخ العالم المسيحى ، هذه هى حركة المجامع المسكونية وأهمها (١) مجمع نيقية سنة ٣٢٥ الذى انعقد بأمر قسطنطين الكبير وحضره ثلثمائة أسقف من أقطار المسكونة برياسة الإمبراطور للحكم على البدعة الأريوسية ، وانتهت بانتصار الحزب المصرى السكندرى برياسة البطريرك ألكسندروس وفى صحبته أثناسيوس — وكان لا يزال شماساً — وتمخض المجمع عن صياغة قانون الإيمان الذى أصبح منذئذ دستور العقيدة الجديدة . (٢) مجمع أفسس سنة ٤٣١ الذى انعقد بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس للنظر فى بدعة نسطوروس بطريرك القسطنطينية من أن الجزء الإلهى من المسيح لم يولد من العذراء ، وإذن فالعذراء أم للمسيح الإنسان فقط ؛ وقد حضره الحزب المصرى برياسة البطريرك

كيرلس الكبير وانتصر المصريون فيه أيضاً ، الأمر الذى أزعج التيوقراطية البيزنطية و بطاركة القسطنطينية ، فبدأوا يقلبون لهم ظهر المجن كما يتضح من تاريخ آخر المجامع المسكونية وهو : (٣) مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ الذى انعقد بأمر الإمبراطور مرشيانوس Marcian لتعريف طبيعة المسيح ، وكان الحزب المصرى — وعلى رأسه البطريرك ديسقوروس — يقول بمبدأ الطبيعة الواحدة ، والحزبان البيزنطى والرومانى يقولان بمبدأ الطبيعتين الإلهية والإنسانية . وفى غضون النقاش الذى دار حول هذا الموضوع تتكوّن المونوفيسية المصرية وتأخذ شكلها الثابت فى أذهان المصريين ، بالرغم من اندحارهم لأول مرة فى هذا المجلس الصاخب ونفى بطريركهم ديسقوروس .

وكان مجمع خلقيدونية بمثابة نقطة التحوّل فى العلاقات الدولية بين المصريين والبيزنطيين ، كان بمثابة إعلان الحرب الأهلية بين الأقباط المغلوبين على أمرهم واليونان الحاكمين بأمرهم : البطريق الوطنى يُنْفى فى سنة ٤٥١ ويموت فى المنفى سنة ٤٥٤ ، بينما تعمل الحكومة فى نفس الوقت على تعيين أحد أعوانها وهو Proterius (٤٥٢ — ٤٥٧) خلفاً له على الكرسى السكندرى بقوة السيف ، فيردّ المصريون على هذا الإجراء بانتخاب أحد المواطنين بطريركاً معارضاً وهو تيموثاوس ، فيطارده الحاكم البيزنطى ديونيسيوس ويعزله قهراً ، وبذلك تنفجر الثورة فى صفوف المصريين فيقومون بمظاهرات تنتهى بتخريب واسع النطاق فى المدينة . ولكن الأمر لا ينتهى عند هذا الحد ، بل يندفع الثوار وراء الخائن Proterius فيغتالونه ويجرون جثمانه فى شوارع الإسكندرية ثم يحرقونه ويذرون رفاته فى الهواء . وقد كان لهذا الحادث العنيف صداه فى نفوس المصريين وفى نفوس البيزنطيين ، وبه اتسعت شقة الخلف بين الطرفين المتخاصمين ، ولم تعد المسألة قاصرة على الاختلافات المذهبية بين المونوفيسية المصرية والملكانية البيزنطية ، وإنما مسألة الجهاد الوطنى ضد ثيوقراطية القسطنطينية ، بعد أن تمركز هذا الجهاد فى حجر كنيستهم القومية بزعامة بطريركهم المصرى المنتخب الذى يعارض البطريرك الملكانى المعيّن .

من العبث والإسراف أن أحاول الإلمام بتفصيلات سلسلة الحوادث الطويلة المعقدة التى نجمت عن مجمع خلقيدونية : فالجهاد الوطنى يستمر ، والقلاقل

تتفجّر فى الإسكندرية بعد حادثة پروتيريوس الملكانى وتيموثاوس المونوفيسى ، وتظل الحال على هذا المنوال قرابة قرنين من الزمان ، نكتفى منها بالإحاطة بنقط التحول الرئيسية فى هذا الصراع ، إذ أن هذه النقط تعتبر أيضاً من نقط التحول فى تاريخنا القومى أيضاً .

بيد أنه قد يتساءل متسائل – ونحن فى هذه المرحلة – عما إذا كانت تلك الحركة الاستقلالية من الحركات المفتعلة أو الحركات المحلية التى يثيرها بعض المتذمرين أو الدساسين أو الساعين وراء غايات شخصية ، يحركون من أجلها طغام المدن ، ولكنها لا تمثل الرأى العام الحق بين طبقات الشعب ، القاصى منها والدانى . .

مراكز الحركة القومية الجديدة :

والإجابة على هذا السؤال تتطلب إبراز المراكز التى ظهرت فيها الحركة القومية الجديدة والأسباب العامة التى من أجلها انفجر بركان القومية المصرية ، لنتبين ما إذا كانت هذه الحركة قاصرة على الإسكندرية ، أم هى تعدتها حتى وصلت إلى صعيد مصر بين العام والخاص بعيداً عن عاصمة البلاد .

الواقع أن دراسة الحركات العامة فى تاريخ مصر القومى فى هذا العصر السحيق ، تدل بوضوح ليس بعده وضوح على أن إفاقة الشعور المصرى الوطنى فى القرن الخامس لم تكن قاصرة على الحدود الضيقة لمدينة الإسكندرية أو أى مدينة أخرى فى الشمال أو فى الجنوب ، ولم تكن من نوع الحركات التى يفرضها جمهور المفكرين أو بعض المحرضين أو البلغاء على عامة الشعب من الجهلاء فى منطقة من المناطق . كلا ! إن دراسة الوثائق واستعراض أحدث البحوث فى هذا الميدان يدفعاننا إلى الاعتقاد بأن إعلان الجهاد فى سبيل تحقيق الفكرة الاستقلالية بين عامة الشعب كان أمراً طبيعياً ولا بد واقعاً بحكم التطورات التى نلحظها فى شخصية الأمة وفى الظروف والأسباب المحيطة بأفرادها .

أما الأسباب التقليدية الواردة فى بطون الكتب قاطبة لتعليل هذا الانفجار – من دينية وسياسية واقتصادية وثقافية – فجميعنا نعرفها من دراساتنا وقراءاتنا السابقة ولا داعى لتكرارها هنا ، وهى كلها أسباب لها أصل من الصحة ، ولكنها فى جملتها تنبع من سبب جامع مانع أهملته الكتب ، هو

السبب النفسانى أو السيكولوجى ، أى إفاقة الوعى القومى المصرى . وذلك الوعى القومى يتبلور بشكل واضح فى مركزين رئيسيين : الأول ، الكنيسة القبطية — أى المصرية فى العاصمة على النحو الذى سردنا مقدماته وملخصه ولناعود إليه فى خاتمة الكلام . الثانى ، فى قلب الصعيد الأعلى ، حيث يتجمهر المصريون حول شخصية من أعجب شخصيات القرن الرابع والخامس فى منطقة سوهاج ؛ تلك هى شخصية الأنبا شنوده الذى وصفه أحدث المؤرخين المحدثين عن القبط — وهو الأستاذ Worrell العلامة الأمريكى — فى محاضراته بجامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢ ، بأنه أعجب شخصية أخرجها القبط فى أى عصر من عصور تاريخهم الطويل ، وبأنه مؤسس المسيحية القبطية .

"The most remarkable man whom the Copts ever produced — the founder of Coptic Christianity"

شنوده :

قد يكون Worrell مبالغاً فى هذا التعميم البادى فى حكمه ، ولكن ما لا شك فيه هو أن القديس شنوده كان علماً من أعلام إفاقة الوعى القومى . ولا بد لنا من استعراض حياته فى إلمامة سريعة لتقدير مركز هذا المواطن الأول فى حركة إحياء القومية المصرية .

اعتنق شنوده المبادئ الرهبانية فى رعاية عمه المدعو Pgol مؤسس الدير الأبيض سنة ٣٥٠ ، وفى سنة ٣٨٣ يخلفه فى رياسة هذا الدير ويظل فيها ٦٦ عاماً طوالا تمكّنه من تدعيم حركته على الأسس التى رسمها . ومن المؤكد أن شنوده عاش بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ فبلغ من العمر عتياً وجاوز القرن من الزمان ، وقد عاصر فى أثناء هذا القرن حوادث خطيرة فى تاريخ مصر والإنسانية : عصر الانتقال من الوثنية إلى المسيحية ، عصر المجامع المسكونية — وقد حضر بعضها ، مثل مجمع أفسس سنة ٤٣١ — دعوة يوليان الزنديق للردة الوثنية سنة ٣٦١ ، إحراق السرابيون حوالى سنة ٤١٢ ورجم هيباشيا سنة ٤١٥ فى بطركية ثاوفيلس ، الصراع بين المونوفيسية والملكانية ، نمو التعاليم الديرية إلى درجة تفوق حد الحسبان . . إلخ .

وفى وسط كل هذا نرى شخصية شنوده الجبارة تظل حركة إفاقة الوعى القومى ، التى تدل الدلائل على أنها كانت أقدم من مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١

وأبعد من الإسكندرية فى جوف الديار المصرية .

أما قوة شنوده واتساع دائرة جماعة الدير الأبيض من أتباعه ، فهى ثابتة من الحوادث التى تناقلتها الأصول التاريخية عنه . ومن ذلك القصة الواردة فى إحدى سيره القبطية من أن عشرين ألف مواطن — رجالا ونساءً وأطفالا — لجأوا إلى الدير الأبيض والمؤسسات المحيطة به فراراً من وجه القبائل الجنوبية المسماة Blemyes فآواهم شنوده أكثر من ثلاثة شهور أطعمهم فى أثنائها ٨٥ ألف أردب من القمح المخزون فى أديرته . فلنتصور إذن كيف كان هذا الإنتاج ممكناً ؟ اللهم إلا بالمساحات الواسعة الخاضعة له وتعدد جماعاته والإدارة الحكيمة الحازمة التى كان الأنبا شنوده المدبّر الأول لها .

لا أريد — فى هذا المقام — أن أسرد إصلاحات شنوده الإدارية فى الحياة الديرية خاصة وفى الحياة الاجتماعية بأرض الوطن عامة ، ولا أريد الإطالة فى أثبات ما قاله Worrell من اعتبار شنوده أصدق تعبير للعبقرية المصرية أو القبطية فى هذا العهد ، ولكننى أكتفى بأن أذكر أن غريزة الأنبا شنوده الاستقلالية كانت تدفعه دفعاً للعمل فى تحرير الفكر المسيحى المصرى من التقاليد والتعاليم الهللينية ، وتقوية المبادىء المونوفيسية المصرية ضد الطابع اليونانى الذى انطبعت به الأورثوذكسية البيزنطية .

ولكن أثر شنوده لم يقتصر على عالم الفكر فحسب ، بل إن كراهيته لكل ما هو يونانى دفعته فى نفس الوقت إلى استئصال الألفاظ الإغريقية الدخيلة فى القداس والصلوات والتراتيل القبطية ، كذلك تعمّد بطريقة منظمة تهذيب لغة القبط وتحريرها وتنظيفها بوجه عام من كل نفوذ إغريقى سواء أكان ذلك فكرياً أم لفظياً .

وكان شنوده كاتباً بارعاً مكثراً من الكتابة ، وكان خطيباً مصقعاً مكثراً من الخطابة . وكتاباته وخطاباته — بالرغم من انطباعها بطابع البساطة والبداوة — كان لها من السحر على أفهام معاصريه مالا جدال فيه . وكان شنوده يكتب ويخطب باللهجة الصعيدية ، فأصبحت هذه اللهجة بفضله لغة الأدب والكتابة ، بينما أصبحت اللهجة الأخميمية — التى كانت أكثر شيوعاً فى الصعيد — لغة الكلام الدارج ، كما بقيت اللهجة الفيومية فى الصعيد الأوسط واللهجة البحيرية فى الوجه البحرى لغة الكلام أيضاً ؛ إلى أن انتقلت البطريركية

القبطية من وادى النطرون إلى القاهرة فى القرن الحادى عشر ، فأدخلت اللهجة الأخيرة على القداس فى عهد متأخر .

لا أعلم إذا كان من المنطق لتقريب صورة شنوده إلى الأذهان أن أصفه بأن شأنه فى تاريخنا القومى فى القرن الخامس كان مثل شأن سعد زغلول ومحمد عبده مجتمعين فى تاريخنا القومى فى القرن العشرين .

الأدب القومى :

والعجب العجاب أن حركة إحياء الأدب القومى التى ندين بها إلى القديس الأنبا شنوده ، تلك الحركة التى يمكن بحق اعتبارها من دعائم الإفاقة الوطنية ودليلا من أصدق الأدلة عليها — حركة تنشيط القلم وشحذ الذهن المصرى البحت فى أسلوب مصرى خالص من شوائب الفكر واللفظ الدخيل عليه من الفكر الهللينى واللغة الإغريقية ؛ أقول إن تلك الحركة لم تكن من الحركات العارضة التى تصبو فى يومها وتخبو فى غدها ، بل إنها تعدت حدود الزمن الذى عاش فيه الأنبا شنوده ، وظلت — بحكم قوة الدفع المستمد من الوعى القومى — تسير إلى الأمام وتزدهر فى القرون السابقة للفتح العربى واللاحقة له على السواء . وبينما كانت فى عهد الأنبا شنوده ، وحتى نهاية القرن السادس على وجه التقريب ، تنطبع بطابع الأدب الدينى فحسب ، فإنها بعد الفتح العربى تنحرف فى أكثر الأحايين إلى ناحية الأدب الزمنى أو الدنيوى ، فتعبر بذلك فى صدق رائع وحماس هائل عن الشعور القومى وعن الفكرة الاستقلالية .

والأمثلة على هذه النزعة الأدبية الاستقلالية عديدة نقتبس من بينها مثلين أو ثلاثة : (١) قصة الصديقين المصريين ثيودوسيوس وديونيسيوس فى أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الميلادى ، باللهجة الصعيدية ، وأبطال القصة صانعان يهاجر أولهما إلى القسطنطينية ، ويصل إلى عرش الإمبراطورية ، وبعد حين يذكر زميل الصبا ديونيسيوس فيستدعيه ويقربه منه ويرقى به إلى مرتبة الرياسة من أساقفة بيزنطة . ليس فى القصة أى شىء دينى ، وإنما تتمثل فيها النزعة الوطنية التى تشيد بمجد المواطنين المصريين حتى فى القسطنطينية . (٢) قصة قمبيز الفارسى وغزوه الديار المصرية ، والغالب أنها من تأليف أحد رهبان الدير الأبيض فى أوائل العهد العربى . وهى وإن تكن قصة تاريخية ،

إلا أن التاريخ فيها خليط من الحقيقة والخيال ، فلا يتبيّن القارئ من الاطلاع عليها ما إذا كان الكاتب مثلا يقصد قمبيز أو نبوخذ نصّر (بختنصر) ، أو هل يقصد الفرس أم الأشوريين أم البابليين . وفيها أيضاً يخلط الكاتب خلطاً غريباً بين الأفكار الوثنية والتعاليم المسيحية الجديدة . غير أن ما هو أهم من هذا وذاك كله أن الكاتب يتخذ من سرد وقائع القصة وسيلة لإذكاء الروح القومية فى ذلك الصراع الدموى الذى اصطدم فيه المواطنون مع الأعداء فى الدفاع عن بلادهم والذود عن حوضهم . وفيها يبعث الإله آبيس ، كما تبعث مدينة ممفيس فى عزّها التالد وفرعون مصر « وفرع » (Waphré = Apries 588-69 B.C.) . والقصة ـ وإن تكن غير كاملة فى نصها الصعيدى المعروف بحيث لا نعلم منها ما آل إليه فيها أمر المصريين ـ إلا أننا نلاحظ بين سطورها الحض على جمع الصفوف ، وتركيز أدوات الحرب فى وجه العدو ، والوقوف وقفة الشرف والاستشهاد فى سبيل الوطن .

إذن فالروح الوطنية التى تولّدت فى أيام شنوده والتى لم يستطع البيزنطيون أن يخمدوا أنفاسها ، ظلت تزهو وتزكو بين المصريين حتى بعد الفتح العربى فى القرنين السابع والثامن للميلاد .

قصة ارشليتز وسنكليتيكى :

أما ونحن فى صدد الكلام عن الأدب القبطى ، فلا نستطيع التجاوز عن قصة من أروع القصص الذى أنتجه الذهن المصرى والأسلوب المصرى الذى تحرر من قيود الفكر والأسلوب الإغريقى ، ذلك بالرغم من أن طابعها العام دينى ، وهى محررة باللهجة الصعيدية الخالصة من آثار اللغة اليونانية .

هذه القصة وليدة فكر المفكرين الذى صاغوا كتاب « السنكسار » المصرى أو حياة القديسين من آباء القبط وشهدائهم . وخلاصتها أن ارشليتز بن يخنس وسنكليتيكى كان شاباً رومانياً مسيحياً غنياً مات أبوه وهو فى عنفوان الشباب ، فأرسلته أمه سنكليتيكى فى رحلة عبر البحر ليتم علومه فى أثينا وبيروت ، ولكن السفينة تغرق به ومن معه فى عاصفة هوجاء ، وتلفظه الأمواج على شاطىء جزيرة من الجزر ، ويدرك أنه الوحيد الذى نجا من الغرق ، وفيما هو يتجول على الشاطىء يفكر فى حاله إذ به يصطدم بجثة غريق ،

فيتأمل فيها طويلا ثم يتولاه القنوط من هذه الحياة الدنيا . وبذلك يقرر الرحيل عنها واعتناق المبادئ الرهبانية ، ويدخل دير الأنبا رومانوس Apa Romanus ويمعن فى النسك والتعبد حتى يبلغ درجة من القداسة تضعه فى مرتبة صانعى المعجزات . ومعجزات ارشليتز هى شفاء المرضى ، فيذيع صيته بين النّاس ، ويهرع القوم إليه من كل حدب وصوب . حتى تبلغ أخباره آذان أمه سنكليتيكى التى كانت لا تزال حزينة على فقدان ابنها ، فتوطد العزم على الرحيل إلى هذا الدير لترى وحيدها وفلذة كبدها . غير أن ابنها فى توحّده كان قد أخذ على الله عهداً أن لا يرى امرأة . وهنا تحدث المأساة ويشتد وطيسها فى النقاش الشعرى الذى يدور بين أبطال القصة . الأم تطرق باب الدير وتتوسل إلى ولدها أن يريها وجهه ويشاركها فى التوسل رئيس الدير دون جدوى . وأخيراً يصلى الابن لربه راجياً أن يأخذ روحه إليه حتى تستطيع أمه الدخول عليه لرؤياه بعد أن تفارقه الحياة ، فيجيبه الله إلى مطلبه وتراه أمه جثة هامدة ، فتنتحب هى بدورها وتطلب إلى باريها أن يأخذ روحها أيضاً حتى ترقد الرقاد الأبدى إلى جانب ولدها ، ويجيب الله مطلبها .

وفى هذه القصة تفصيلات كثيرة غاية فى الروعة ليس هذا مجال استعراضها ، وكل ما نرجوه أن يتيح الله لبعض شبابنا المثقف التوفر على دراستها ودراسة أمثالها من قطع الأدب القبطى المصرى التى جادت بها قرائح الآباء والأجداد .

فى ميدان الفن :

وإذا ما انتقلنا إلى ميدان الفن فى هذا العصر ، نرى آثار الروح القومية الجديدة واضحة فى تحرير الأساليب الفنية والمعمارية من تأثير التقاليد البيزنطية البحتة ، ولو أن هذه النزعة لم تكتمل تماماً إلا فى أوائل العصر العربى بعد الفتح .

ويظهر ذلك فى نواح مختلفة منها نظام الأيقونات القبطية للرسل ورؤساء الملائكة والقديسين فى الكنائس ، وبينها وبين الرسوم البيزنطية فروق واضحة .

كذلك تدل الرسوم التى على الأقمشة القبطية — والكثير منها فى متناولنا ويحتوى أمثلة رائعة فى جمالها من حيث التنسيق ودقة الصنع وبهجة الألوان

وانسجامها — تدل هذه أيضاً على أن فن الرسم والتطريز على القماش أخذ الطابع القومى هو أيضاً بدوره ، وقد برع فيه المصريون براعة تدعو إلى التقدير والإعجاب .

أما المعمار فنرى فيه أن الأعمدة القبطية تأخذ شكلها التقليدى المعروف فى الكنائس العتيقة بمصر القديمة ، وهذه الأعمدة ورءوسها وإنْ لم تبلغ فى جمالها وخفتها نظيراتها فى كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية ، إلا أن لها جمالا محلياً من نوع معين ، فمثلا رءوس تلك الأعمدة استوحى الفنانون الأقباط رسومها من السلال التى اعتاد الرهبان المصريون قتل الوقت فى صناعتها بالأديرة . وهنالك أيضاً الأفاريز ذات ال motif الحيوانى والنباتى ، بعضها نلحظ فيه ركض حيوانات الصيد ، وبعضها تنساب فيه فروع الكروم وأوراقها وعناقيدها المتدلية ؛ ثم المشكاة niche القبطية تظهر من أقدم العصور المسيحية وراء الهيكل فى شكل الصدفة المقبية إلى أعلى وفيها الدولفين .

ولا ننسى بأى حال من الأحوال صناعة الحفر على الخشب الذى تطور بمصر تطوراً عظيماً ، ودخل فيه التطعيم بالعاج ، كما أخذ فى مجمله اتجاه الرسوم الهندسية التى ليست من الفن البيزنطى فى شىء ، والتى أصبحت فيما بعد من أسس الفنون الإسلامية . وقد رأينا فى هذا الميدان أمثلة كثيرة فى أديرة وادى النطرون ترجع صناعتها إلى القرن الخامس ، نذكر على وجه أخص بعض الأبواب الخشبية المتحجرة لكنائس دير البراموس القديمة وعليها من نقوش القرن الخامس ما لا يستطيع الناظر تفرقته من بعض القطع الفاطمية أو الأيوبية .

خاتمة الحكم البيزنطى :

نلاحظ أن تلك المظاهر القومية فى الآداب والفنون وفى التفكير الدينى قد أخذت تتفاعل وتزداد شدة فى الوعى القومى كلما مرت السنون ، وأصبح الصراع بين المونوفيسية القبطية والأورثوذكسية البيزنطية صراعاً دموياً حول مشكلة الطبيعتين والطبيعة الواحدة التى اتخذها كل منهما ستاراً وسبباً لما يربض وراءها من المشاكل والمطامع . المصريون يعتزون بكرامتهم القومية ، والبيزنطيون ماضون فى ثيوقراطيتهم الاستبدادية . ثم زاد الطين بلّة ظهور نظرية جديدة متممة

للأفكار المونوفيسية وهى نظرية المونوليثية Monolethitism حول الإرادة أو المشيئة الواحدة للمسيح عند الجانب المصرى والإرادتين أو المشيئتين عند الجانب الغربى .

قد يبدو هذا الجدل الأريوسى فالمونوفيسى فالمونوليثى فى القرن العشرين نوعاً من الخبل والتخبط الكلامى والنقاش البيزنطى الذى لا طائل تحته ، ولكن علينا إذا أردنا أن ندرك مغزى الأحداث التاريخية أن ننظر إليها بمنظار المعاصرين لها وليس بفكر المفكرين فى القرن العشرين . أما المعاصرون فكانوا يرون فى كل ذلك مسألة المسائل ومشكلة المشاكل ، ونرى نحن اليوم كيف كانت هذه الاختلافات المذهبية البودقة التى اضطرمت بين جدرانها لهب القومية المصرية . فالأمر إذن لم يكن منحصراً فى نقاش ثيولوجى لاهوتى ، وإنما اختلط بيقظة الوعى القومى . وأصبحت المسألة الدينية هى القضية المصرية ، والتف المواطنون المصريون حول بطريركهم المونوفيسى ضد البطريرك الملكانى الذى يمثل الحكم الأجنبى البيزنطى بين ظهرانيهم ، كما أصبحت الكنيسة القبطية رمز الوطنية المصرية ، وفى حجرها ترعرعت أول حركة قومية استقلالية فى التاريخ المصرى منذ انهيار الإمبراطورية المصرية القديمة .

ومن بين المظاهر الواضحة لهذا الصراع أنه كلما اشتد الضغط الأجنبى على المصريين كلما ازداد عنادهم ، واشتد تمسكهم بأهداب كنيستهم وبطريركهم ونزعاتهم الاستقلالية . بيد أنه من العجب العجاب أن هذا الصراع الدموى لم يصرف المصريين عن نشاطهم الدينى والثقافى والاجتماعى فى اتجاهين من أروع الاتجاهات فى تاريخهم : الأول حركة التبشير بالمسيحية فيما وراء الحدود المصرية ، حيث فاز فرومنتيوس حوالى منتصف القرن الرابع وفى أثناء بطركية أثناسيوس الكبير بكسب إثيوبيا للديانة المسيحية على المذهب المصرى ، فارتبطت بذلك منذئذ هاتان الدولتان برباط العقيدة . والثانى هو قيام الرهبانية والديرية المصرية بزعامة كبار الآباء مثل أنطونيوس وباخوميوس ومقار وشنوده وغيرهم ، وهذه الحركة الديرية تعتبر من أينع ثمار الفكر المصرى ومن أبقى آثاره فى تاريخ الحضارة .

من ناحية أخرى نلاحظ أن الديار المصرية فى أخريات العصر البيزنطى كانت فى حال يرثى لها من التخبط والفوضى فى ميدان الدين والسياسة على

حد السواء . فالثيوقراطية البيزنطية بالقسطنطينية غير راغبة فى التسامح الذهنى أو فى تخفيف الضغط السياسى على المصريين ، والمصريون من جانبهم ماضون فى الدفاع عن كنيستهم وعقيدتهم ، مستمسكون بأهداب قوميتهم إلى آخر رمق فى حياتهم . وآنئذ يجىء چستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) آخر بناة الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وبالرغم من أن زوجته ثيودورا كانت بلا نزاع مونوفيسية العقيدة ، فكان من الطبيعى أن تميل إلى مناصرة المصريين ما استطاعت لذلك سبيلا ، وبالرغم من أن چستنيان نفسه على ما قيل فى أواخر أيامه أعلن صدق المذهب المونوفيسى ، بالرغم من ذلك كله نجد أنه لا يألو جهداً فى قمع الحركة الاستقلالية المصرية بشتى الوسائل ، لا لسبب سوى نزعته الرومانية الاستبدادية ، وتصميمه على إعادة الوحدة الإمبراطورية العتيقة .

لتحقيق هذا الغرض ابتدع چستنيان فكرة البطريرك ذى الرياستين الدينيـة والزمنيـة ، وعيّن أپوليناريوس Apollinarius على هـذا الأساس بطريركاً ملكانياً وحاكماً مدنياً على مصر حتى يتمكن من استعمال الجيش عند اللزوم فى إخضاع المنشقين . ولكن چستنيان لم يقدّر فى هذا الوضع الجديد صلابة عود المصريين ومدى عنادهم ، فجاءت طريقته الجديدة ضغثاً على إبالة ، وانتهى الأمر إلى نوع من الحكم العسكرى البحت ، وأصبح البيزنطيون فى مصر عبارة عن سلسلة من الحاميات تتوارى داخل الحصون والأبراج ، والمصريون فى البلاد واقفون لهم بالمرصاد . وهذا النوع من الحكم مهما طال به الأمد مصيره إلى الإخفاق إن عاجلا أو آجلا .

وقد بدأت الظروف فى بيزنطة ذاتها تمهد لهذه النتيجة الحتمية عندما اغتصب هرقل تاج الإمبراطورية من فوكاس (٦٠٢ — ٦١٠) ، فانحازت مصر للغاصب أملاً فى التخلص من النظام القائم ، ولكن هرقل الذى كافأ المصريين فى أول الأمر ببعض الحرية ، ما لبث أن قلب لهم ظهر المجنّ وعاد إلى سياسة أسلافه ، بينما كان الفرس يعدّون العدّة لفتح مصر الذى تم لهم سنة ٦١٩ ، فلما استردها هرقل من يدهم سنة ٦٢٩ نجد أنه لم يتعلم درساً من هذه الحوادث فى علاقاته مع المصريين ، فيبادر بالاعتداء الصارخ على حرياتهم ، ويعمل

على طمس معالم كنيستهم ، بتعيين المقوقس حاكماً عسكرياً وبطريركاً ملكانياً ، لكى يتم عليهم نقمة الاستعباد .

وفجأة — فى وسط ذاك الضجيج والصخب الذى بلغ عنان السماء — يتغير مجرى التاريخ الإنسانى ، وتنقلب فيه صفحة جديدة بظهور الإسلام وقيام الإمبراطورية العربية فى مصر وغير مصر من فلول الدولتين البيزنطية والفارسية وما وراءهما .

وهكذا يسدل الستار على فصل من فصول تاريخنا القومى — إنما التاريخ ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

عزيز سوريال عطية